مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 15 العدد 1، 2018، ص ص 135- 159

أمين الريحاني: أديب ذو أفكار فلسفية

مايا الحاج *

تاريخ الاستلام 2017/3/14 تاريخ القبول 2017/8/22

ملخص

تتضمّن كتابات الريحاني، في **الريحانيّات**، نصوصًا عدّة تركّز، بجزء كبير منها، على آراء الريحاني وأفكاره الخاصّة حول الفلسفة. أمّا اختياري فقد وقع على نصّين وهما: "في ربيع اليأس" و"الرسول الأسمى". ولدى قراءة هذين النصّين، يندفع القارئ إلى التساؤل بشأن هذا النوع من الفلسفة وتجسّدها في أفكار الريحاني وأعماله. وهذان النصّان غنيّان لأنّهما يتضمّنان صورًا وأمثلة ملموسة، وبإمكانهما أن يعزّزا العمل التحليليّ لهذه الفلسفة بوضعها بالشكل الملائم في المكان المناسب، وفي عصرها الحقيقيّ. أَضِفْ إلى ذلك أنّ المقارنة تجري ضمن هذين النصّين، بين أفكار الريحاني المرتبطة بالفلسفة المثاليّة والفلسفة البراغماتيّة، والفلسفة الواقعيّة، في ما خصّ الإنسان وتعقيده، والعالم المحيط به، والكون الذي ينتمي إليه، والقيم والمبادئ التي يؤمن بها، وبالتالي المعرفة التي يسعى إلى امتلاكها. ويسلّط هذا البحث الضوء على الريحاني شخصاً وأديباً ذا أفكار فلسفية. ولقد أصبح الريحاني من الأدباء الكبار الذين يتمتّعون برؤية فلسفية عميقة كدانتي والقدّيس بولس والفيلسوف سقراط وغيرهم من الفلاسفة الذين تركوا بصمة مميّزة من خلال أعمالهم وفلسفتهم. أمّا آراء الريحاني الفلسفيّة، فتجعلنا نتساءل ما إذا كانت آراؤه هذه مثالية فحسب كأفلاطون وديكارت أم هي آراءٌ قابلة للمناقشة والتعديل والتحوّل كما أرادها الريحاني نفسه.

مقدمة:

تسلّط هذه الورقة الضوء على الريحاني الأديب الذي تحمل كتاباته الكثير من الأفكار الفلسفيّة كما تطرح إشكالية ما إذا كانت هذه الأفكار مرتبطة إلى حدّ بعيد بالفلسفة أياً كانت أنواعها. وعلى هذا، سأقسم البحث إلى النقاط التالية: شخصيّة الريحاني الأديب ذي الأفكار الفلسفيّة، وهذا بالاستناد إلى نصَّيّ "في ربيع اليأس" و"الرسول الأسمى"[1]، ومقارنتهما بما أتى به أفلاطون، وسقراط، والقديس بولس، وديكارت، ثم مقارنتهما بأفكار دانتي، وببعض مقولات البراغماتيّة، وفي النهاية البحث في النتائج.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2018.

* قسم الأدب الإنكليزي والترجمة، كلية الإنسانيّات، جامعة سيّدة اللويزة، جبل لبنان، لبنان.

1- شخصيّة الريحاني

أمين الريحاني كاتب ومثقّف موسوعيّ، ومصلح إجتماعي وأديب ذو أفكار فلسفيّة عميقة. دافع عن وطنه العربي وعن حقوق الإنسان. عكست مؤلفاته آراءه الخاصّة الاجتماعية والإصلاحيّة، ونظرته إلى الإنسان ولا سيما في "الريحانيّات"[2]. وشدّد على التمدّن، والرقيّ، والثورة على كلّ مظاهر الظلم والاستبداد[3]، واتّخذ مجموعة من المواقف الرافضة الاجتماعيّة والسياسيّة بهدف تغيير مجتمعه إلى الأفضل.

رأى الريحاني أنّ الإنسان اللبنانيّ يتعرّض إلى ضغوط ماديّة وروحيّة واجتماعيّة وسياسيّة تعطّل حقّه، وتلغي الديمقراطيّة من أساسها، لذلك دعا إلى ضمانات تحفظ حقوق الإنسان في الحريّة والحياة الكريمة، كما ناشد بالمساواة بين الجنسين، وإلزامية التعليم المجاني، وفصل الدين عن الدولة، ووضع حدّ لتسلّط رجال الدين والإقطاع، والتخطيط لنوع من الاشتراكيّة الإنسانيّة يعيد توزيع الثروة بما يمنع الاحتكار والاستغلال. ورأى في العلم سبيلاً إلى إلغاء التخلّف، وفي الوحدة طريقًا للاستقلال، وفي العلمانيّة الصورة المتوخّاة لدولة الوحدة بما يكفل قيام حضارة جديدة[4]. كما أتى انشغاله بهموم الوطن العربي أيضاً نتيجة إيمانٍ بحقّ جميع الشعوب في تقرير مصيرها، فدعا بالتالي إلى قيام وحدة عربيّة ذات أهداف إنسانيّة تحقّق مجد العرب، وتكون خلاصًا للأقلّيّات. وإلى جانب ذلك، اهتمّ أيضًا بحريّة المواطن وبدوره في تحديد سياسة بلده عبر اختيار حكّامه وقادته. ودعا الريحاني إلى علمنة الفكر والتعليم والسياسة، معتبراً أن الأمة الراقية هي التي يتمتّع مواطنوها بالحرية الروحيّة. وعلى هذا، تتجلّى مرتكزات الفكر السياسيّ عند الريحاني في الالتزام بالمعنى الفكريّ والسياسيّ العام لا بالمعنى الحزبي الضيّق، والثورة بمعناها الحياتي الواسع قبل معناها السياسيّ المحدود[5].

ولتحقيق ما سبق، دعا الريحاني إلى إعلاء شأن الفرد وتعظيم حريته من منظور شامل يتعلق بالنهضة والتنوير والعقلانيّة. ووضع نظرية فلسفيّة محورها "الإنسان المتفوّق" الذي يحيا في "مدينة عظمى"، مدينة المستقبل. فكيف تحدّدتْ نظرته إلى الإنسان ومعنى الوجود، ومعنى سعادته وديمومتها؟ وإلى أي مدى التقت أفكاره الفلسفيّة بأفكار من سبقوه من الفلاسفة المثاليين أو من لحقوا به؟ وهذا ما سنفصّله في ما يلي:

2- آراء الريحاني الفلسفية ومقارنتها بما أتى به سقراط، والقديس بولس، ودانتي، وديكارت

مزج الريحاني في كتاباته بين الأدب والفلسفة وجعلهما في متناول كل قارئ، بغض النّظر عن ثقافته وقدراته الذهنية، وقدّمهما بصورة شعريّة، فقرّبهما من الأذهان، ولا سيما في "في ربيع

اليأس" و"الرسول الأسمى"؛ ففي الأولى، حدّد دور الإنسان في الوجود من خلال عرض تجربة شخصيّة بأسلوب قصصيّ شائق. وفي الثانية، أتى على شكل حقيقة يقينية لا تحتمل الشكّ، حول قيمة الإنسان، والهدف النهائي من وجوده. وعالج بالتالي هاتين القضيتين في إطار عرضه مجموعة من القضايا المتداخلة، كاليأس، والحب، والرفض، والأخلاق، والسعادة، والمجد، وسمات الإنسان المتفوّق، والمدينة العُظمى. وسيعالج البحث في ما يأتي هذه القضايا تباعاً.

أ- **اليأس:** ينطلق الريحاني في تقديمه فكرة يقينية عن "الحقيقة المطلقة" من خلال إعطاء أمثلة متعدّدة عن اليأس ومستوياته عند الناس. فهو شعور مشترك بين الجميع، مع الإشارة إلى اختلاف نسبته عند الناس، كلٌ وفقاً لعمله ومستوياته الاجتماعيّة والفكريّة والثقافيّة. ويحاول، عبر طرح التساؤلات عن هذا الشعور الذي يعدّه منطلقاً لبداية البحث عن المعرفة ورغبة الإنسان في الحصول عليها، ودوره في هذا العالم، والغايات التي يطمح الى الوصول من خلالها إلى المجد والسعادة، انطلاقًا من وضعه على هذه الأرض. ويطرح السؤال التالي: هل الإنسان الذي ينتهي يأسه بقصيدة ينظُمها أو بظفر غرامي في حفلة راقصة، هو مثل مَنْ له سلّم لَولبي من الأشواق والآمال؟ ويُجيب عن سؤاله: "قد يكون الجوهر واحدًا. ولكنّ الشكل واللون والبيئة، وما يتصل بالبيئة من سابق ولاحق في الحياة، يختلف كلّه اختلاف الأشواق والآمال في الناس، واختلاف الثروة الروحية في الأفذاذ"[6]. إذًا، يرى الريحاني أنّ الشعور باليأس موجود عند الجميع لكنه ليس على درجة واحدة عند الجميع، وكلّما تعاظم هذا الشعور، تعاظمت مسؤوليّة صاحبه تجاه المجتمع، تعاظم وبالتالي دوره. وفي الوقت نفسه، يرتبط هذا الإحساس بمعرفة الإنسان، فكلما ازداد يأسه، ازدادت معرفته، وازدادت نسبة الأمل لديه في إيجاد وسيلة لتغيير المجتمعات. وتاليًا، يرى أن اليأس بمنزلة طريق إلى المعرفة، وهو بذلك يشير إلى أن حبّ المعرفة موجود في الإنسان وفي طبعه، ويُكتسب بالحدس. فإنّ المسؤولية المترتّبة على الفرد تختلف بحسب موقعه الاجتماعي والفكري، وهذا الطبع موجود حتّى في العلماء والمفكّرين والأنبياء، ويرتقي ويسمو به كلما اتّسعت دائرة اهتمامات الفرد، من المادي والحسّي واليومي والخاص إلى الروحي والدائم والعام. وهنا، يبدو اليأس وكأنه واقع ملزم وضروري لتجديد الحياة، ومن خلاله، وليس من خلال أي معرفة أو علم آخر. وهذا العلم، هو العلم الأهم الذي ينادي به الريحاني في فلسفته، ويعتبره أهم من العلوم الأخرى البعيدة عن حالة الإنسان النفسية ولا تهتم بقضاياه وحالته الوجدانية. لذا تراه يولي الأهمية الكبرى لمشاعر الإنسان، فتسمعه يقول في النص نفسه: "ماذا يفيدك الفلك وأنت لا تدري إلى أي برج من أبراجه تصل النجدة؟ وماذا تفيدك معرفة البلدان وأنت عاجز عن السفر إلى حيث تخفّ تكاليف الحياة وتنعم بجنياتها، أو الفلسفة وأنت في لجج الأحزان... أو الطب وشراييينك تزداد تصلّبًا...؟" وهنا، نرى الريحاني المثالي الذي يعتبر أنّ الحقيقة موجودة وقائمة في هذا العالم، ولكنها مستقلة عن الإنسان بصورة مطلقة، وتُكتَشف عن طريق الحكمة التي تأتينا

من الخالق أو الأنبياء أو الفلاسفة. ويلتقي الريحاني في موقفه هذا مع موقف أرسطو حول أن العلم ضروري للعقل البشري وواجب في الفلسفة، وأن استكشاف أسرار الحكمة خير وأبقى من حكم الدنيا بأسرها...[7] هذا من جهة، ويلتقي بهذا مع الرسول بولس في تشديده على "الله الخالق والمتعالي فوق كل شيء وواهب الحياة لكل شيء، وبأنه زرع في عمق قلب الإنسان التوق والحنين إليه"[8].

ب- **الحب:** يستخدم الريحاني أسلوب السرد في القسم الأوّل من نصّه "في ربيع اليأس" ليروي تجربته الحياتية التي جعلته يكتشف المعرفة الحقيقة، ومعنى الحياة، ودور الإنسان في هذا العالم، ومنتهاه. فيروي قصة هروبه من غرفته في ليلة عاصفة، وفيها إشارة إلى يأسه الشديد من عالم دفن فيه أحلامه، عالَم لم يكن على مستوى التوقعات ولم يُكشف له كما يُريد. هذا الشعور بالنقص واليأس دفعه إلى البحث عن طريق أخرى، في بلاد أخرى. وهو في مسيرته هذه، التقى امرأة "بائسة، شريدة"، ومعها، أحرق "سِفرًا من الأسفار" لتدفئتها، ونسِيَ بالتالي "ضالّته المنشودة". وفي ذلك إشارة إلى أنّ الإنسان الذي يشعر باليأس يبحث عن الضالة المنشودة التي تتمثل في البحث عن دور له في المجتمع الذي يميّزه، وبالتالي عن معنى وجوده، لكي، في نهاية المطاف، يذوب مع من يحبّ في حب يتكامل طرفاه على كل المستويات العاطفية والفكرية، فيتّحدان، وفي هذا الاتحاد تكمن قوة التغيير. وهذا المر يكون على المستوى الفردي، وهو يمكّن صاحبه من تحديد خياراته، وبالتالي التغيير على المستوى الجماعي، تمهيداً للاتحاد بالخالق. ومن هنا، يبدو الاتّحاد بالمرأة الحبيبة المتساوية مع الرجل والمتكاملة معه ضرورة حتمية للاتحاد بالله. وبهذا يقترب من أفلاطون في حبه الخالص الذي يقود الروح إلى الخير. كما ان الإدراك يقود الروح إلى الحقيقة، وبذلك يتبدى الحب بمثابة أسمى عمل تقوم به الطبيعة الإنسانية[9].

وفي هذا السرد، نجد تقابلاً بين ذات الريحاني والمرأة في الغرفة وفي المدينة، وكأنهما كآدم وحواء لا في الفردوس لا بل في الجحيم، كما يظهر لنا في قوله: "فررْتُ من آدم وحواء في الجحيم، هربتُ من المدينة، ومن جحيمها"[10]. ومعها انتقل من حال إلى حال أخرى، من عالم إلى عالم آخر، ونسي كلّ ما له علاقة بالأرضيّات. انتقل إلى "الحياة الكبرى التي تتبارى فيها المحاسن والمآثم واللّذّات والآلام"[11]، ويعمّم بذلك تجربته لتطال الإنسان ككلّ. ومن هنا، ندرك أنّ حواء تعاني الحالة النفسية نفسها، غير أنها لم تيأس، وهذا ما يشير إلى أنّ القضية المطروحة هي قضية الإنسان بشكلٍ عام.

ويتابع الريحاني في نصّه "في ربيع اليأس" البحث عن ضالته فيتوجّه إلى البادية، حيث ينعم بكل ما فقده في المدينة، ويطرح مسألة الرفض والتمرّس في قول "لا" في بعض الأحيان كونها من أسس الأخلاقيات التي يتأسّس عليها منهجه الإصلاحي، ولا سيّما تلك التي تدخل في إطار

التكاذب والعصبيات الدينية والعقائدية، ونبذ كل ما يكبّل حرية القول والمعتقد. وهذا الأمر قد قاده إلى طرح فكرة "التساهل الديني أي الانفتاح على ما يمكن أن يقبله العقل من أمور قد تبدو متناقضة أو متعاكسة". ويستتبع ذلك رفض التسليم المطلق لما تقوله الأديان مرجعاً أسباب التخلّف في الشرق إلى رزوح الشعوب تحت الأوهام الدينية. لذلك، يرى أنّ تقويضَها يكمن في أساس كل عمليّة تحرّريّة تقدمية[12]. ومن هنا، انبثقت فكرة التوحيد بين الديانات.

ج- توحيد الديانات: أوجد الريحاني معادلة للسلام بين الديانات وعبّرعن هذا المنحى التوحيدي في أكثر من مقالة من مقالاته. وهذه من المسائل المشتركة في نصّي "في ربيع اليأس" و"الرسول الأسمى". فتسمعه في نصّ "في ربيع اليأس" يقول: "... ووقف الأنبياء في ربيع اليأس فصرخوا من أعماق قلوبهم قائلين: سمع الإنسان كلمة الله وظل عتيّاً. وآمن الإنسان وظلّ ضالاً. ومشى الإنسان على الاثنين وهو لا يزال في كثير من صفاته مثل ذوي الأربع. علّمناه التوحيد وهو لا يزال يقول: عيسى ومحمد وبوذا وزرادشت. علمناه المحبّة وهو لا يزال يصنع المدافع والقنابل والبارود. علّمناه الرحمة والعدل وهو لا يزال، في سبيل شهواته، يطأ بقدميه القلوب الدامية... لله من ظُلم يُبعث في حكومات العالم الحرة! لله من تعصّب يتجدد في أديان الأمم المتمدّنة! لله من شعوب تنفر إلى الماضي لتمتص من عظام الأموات شيئًا من الحياة! لله من حياة تزداد أعباء كلّما ازداد الإنسان علمًا ونورًا! لله من شعوب في هذا الشرق تردّد كلمات التوحيد وهي عامهة في الشّرك..." ويختتم الريحاني بعبارة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، معترفًا بالمصدر الإلهيّ الأصلي للأديان الرئيسة. وهو في هذه القضية يلتقي مع رؤية دانتي حول الحقيقة الإلهية الواحدة وإن اختلفت الديانات. وكان دانتي يؤمن بوجود إله واحد أبدي يحرّك ولا يتحرّك، وبأن هذه الحقيقة موجودة في الكتب السماويّة ويمكن لأي إنسان أن يكتشفها إن أعمل عقله. وكان بهذا يدافع في الوقت ذاته عن طبقة حاكمة نبيلة تصل إلى السلطة بالعلم والفضيلة. وأكدّ هذا الأمر أبرز دعاة الفلسفة المثالية العقلية ديكارت، بعدما سخّر منهجه في الشك، وتوصل إلى حقيقة يقينية تعتبر "أنّ الذات الإنسانية جوهر مفكّر، وأنّ ثمة خالق لها يتّصف بالديمومة والكمال"[13].

وببارقة أمل مفادها أن اليأس يمكن أن يبعث على تجديد روح الدين الحقيقي من جيل إلى جيل، فيقول: "في السماء ربّ واحد وإن تعددت أسماؤه. وعلى الأرض ناموسه، مظاهر تتجسّم كل جيل في أفراد من الناس، فينيرون جادة من جادات الروح، ويفتحون للشعوب بابًا من أبواب الخلاص". هم (ويشير إلى المصلحين) أزهار ذاك الربيع، ربيع يأس الأنبياء. لهم يومهم، ولهم عملهم، ولهم يأسهم المزهر المنير. ولولا ذلك لنسَوا حتى الله. إن يأسي في ربيعه، وفي هذا الربيع زهرة طيّبة الأريج لكل أمة من الأمم ولكل شعب من الشعوب. ولولا هذه الأصوات المرسلة من اليأس أشعّة وحياة لتجديد الأمل والجهاد، لما مشت الأجيال إلى المحجّة العليا"[14].

د - **الإنسان المتفوّق:** يقدم الريحاني نفسه في نصّيه "في ربيع اليأس" و"الرسول الاسمى"، مصلحًا اجتماعيًا ورسولاً وحاضناً لفكر الانبعاث، ومخلصًا، فتسمعه يقول: " وأنا المقيم في هذا الوادي، في هذا الزمان، زهرة يأس الأنبياء، زهرة نوّرت، فذوت، فتناثرت أوراقها، ثم انتثرت من قلبها بذور الحياة، فحملتها الرياح في النواحي الأربع من الأرض. زهرة من يأس الأنبياء تغدو بستاناً، ويضحي البستان ربيعًا. ويكون للربيع صوت، هو الذي تسمع الآن، هو صوت صاعد من ربيع اليأس"[15]. ويتابع في "الرسول الأسمى" ليحدد سمات هذا المصلح الرسول المخلص على النحو الآتي:

هو في المدينة في الحقول والجبال ينشد نشيد الأبطال، وهو في الفضاء، وهو "عدو اليأس والجمود"، يوقظ في البائسين روح اليقين، هو للجميع "إليّ وإليك...إلينا جميعًا"، ليس من هذا العالم. يقول الريحاني على لسانه: "لقد جئتك من العالم الأعلى، من الجبل المقدس، ومما وراء الأفق الأنوار...وهذه حقائبي... ملأى بالكنوز الخالدة... إني أحمل إليك رسالة من رب الكائنات، كلمتها الأولى والأخيرة إلى الأمام على الدوام". وهذه الهدايا هي من الرياحين، والغار، والبساتين، والمروج والأودية... من عناصر الطبيعة. ويتابع بأسلوبه الاستفهامي متسائلاً يسأل عن حالة الإنسان الوجدانية: "هل أنت بائس مكروب؟" هي ذي هدية الفجر إليك. وهي ذي هدية المغيب. بحر... وموسيقى الحياة تأتي من قلب السواقي، ومن صفير الرياح... ومن هدير الأمواج..." فتتخذ الطبيعة وظيفة المهدئ وباعث الراحة والسرور.

وعليه، تتمثل صفات هذا الرسول في كونه آتياً من عالم آخر، وموجودًا في كل مكان، محمّلاً بهدايا خالدة من الطبيعة، وهو عدو اليأس ومعين اليائسين. جاء ليبعث في الإنسان فرح الحبور والهمّة والنشاط والإيمان والأمل وحب المغامرة والمغالبة، وجاء ليقول للإنسان: "إن الصحة والمال والبنين لأشياء جميلة لكن الأجمل منها شجاعة النفس... ويمتلك إرادة الحرية، وهو مثل أعلى، ويتحلى بالجسارة والفضائل والأخلاقيات الحسنة، قائد وموجه وحامل هموم أمته على منكبيه[16]، يحصل على هكذا معرفة معظم الناس، بل مجموعة من الاستثنائيين بسبب ما لديهم من قدرات تمكنّهم من الذهاب بعيداً، ويحدّث النجوم كما يوافق على ما تذكّر النجوم به من كلام الأنبياء والعلماء والشعراء الملتزمين بالقضايا الإنسانية العامة والاجتماعية والسياسية فهم يستجيبون لمتطلباتها، ولا ينضوون ضمن خط سياسي ضيق[17]، وهو الذي يمتلك القوة الحقيقية الإيجابية، قوة الرفض، والقدرة على قول "لا لإبليس"[18]. وتاليًا، هو حصيلة التعاضد بين الطبيعة والروح والله وهذا تعود أصوله الأخلاقيّة إلى فطرة الخير في الإنسان، وإلى عاطفة الحب الحيّة الأبدية فيه. هذا على عكس ما أتى به دانتي حول أنّ مصدر الشر في الإنسان موجود في الإنسان ذاته، من خلال قوله في القصيدة السادسة عشرة: "إذا كان العالم الحالي منحرفاً وضالاً فابحثوا عن السبب في أنفسكم"[19]. وهو أيضًا، كائن حرّ واعٍ نازع دومًا إلى تحقيق ذاته وبلوغ أعلى

مراتب الكمال. إنهُ يحترم جسده، ويقف وقفة عزّ ضد الظلم، ويطلق حرية القول والعمل، وهو مبدعٌ لما للمبدعين من مكانة خاصة في مراتب السلطة، وإن اعتمد روح البحث والتمحيص التي تُصلح الأخلاق، وتفكّ قيود العقل والروح. وهو يحنّ إلى الجذور الروحانية ويتوق إلى الاتحاد بالحق، تماماً كإنسان دانتي الذي كان يصبو في قرارة نفسه إلى رحلة ارتقاء روحي نحو الكمال يقوده فيها فرجيل أولاً، ومن ثم بياتريتشه إلى العالم الآخر بهدف التقرب من الخير الأعلى والسكينة الدائمة.

وعليه، تشكّل معالمُه الاتجاهات الروحانية التالية: الحلولية، والتصوّف، والتأمل في المسألة الإلهية، وهذا ما يختلف عن المعني النتشوي للكلمة. فهو لن يكون برأيه من الأبناء المتفوقين في العصر ولا من سلالة "الحيوان الأشقر الجميل" الذي تحدث عن زرادشت والذي سيطحن البشرية... ولن يكون من عرق دون آخر، أو من منطقة جغرافية دون أخرى... وهو بهذا التخطي للحدود يمنح الحرية مكانة خاصة في معنى التفوّق[20].

وفي هذا الإطار، يضع أيضًا سلسلة من قواعد السلوك التي تؤدي إلى سعادة الإنسان على غرار القديس بولس. ويركّز فيها على الفضائل والثورة على الحياة الأرضية الخانعة، مع التركيز على الفرح والحبور الضروريين لسعادة دائمة على الأرض تُستمدّ من الطبيعة والإيمان بالله، إلى جانب الثروات المادية. ولا ينكر الريحاني صعوبة المَهمّة التي يقوم بها هؤلاء المصلحون، بسبب الإغراءات التي يقدمها لهم عالم المدينة الذي يحدّثهم " وهو يبتسم ابتسامة إبليس"، مقابل حياة البداوة بما فيها من أصالة وعفويّة وبراءة تجذبه إليها، وسهولة في العيش بعيداً عن الضغوطات الاجتماعية والنفسية التي يمكن أن يتعرّض إليها المرء.

هـ- المدينة العظمى- دولة المستقبل: بعدما اختمرت الرؤية السياسية عند الريحاني، وجد أنّ الإنسان المتفوّق لا يمكن أن يبقى متفرجاً على مجتمع متخلّف ينتمي إليه أو متقدّم نسبياً، فعرض مجموعة من الأسس التي اعتبرها مميّزات المجتمع الفاضل، أو مدينته العظمى التي نثر أفكاره حولها في الريحانيات، وزنبقة الغور، وكتاب خالد وغيرها، وأهمّها فكرة استبدال المجتمع السلطوي بالمجتمع المنتج. لذا يدعو الريحاني الناس إلى الابتعاد عن السياسة والاقتراب من الحقول. وهو بذلك على غرار أفلاطون يضع ملامح مدينته الفاضلة، والتي يتّسم إنسانها بالتفوّق وتتقدم فيها العاطفة على الغريزة والعقل على العاطفة، والسلطان فيها هو الخادم، والتطابق بين النزعتين القوميّة والإنسانيّة بحيث تأتي الثانيّة مكمّلة للأولى، وتكون الثانية جزءاً لا يتجزأ من الأولى. وفيها ربط بين القيم الأخلاقية والحريّة الروحية، وصَون لحقوق الإنسان والوطن فيها مكان الطائفة. ويجعلها مدينة الحريّة بنوابغها الأصحّاء وبكثرة الأصحاب، وفيها يمزج بين البساطة والجمال، وبين الرحمة والعدل، وبين العلم والدين. كما تشارك المرأة فيها في الحياة الاجتماعية،

وتكون الأمهات حازمات، ويحاسب فيها كل امرئ نفسه. وتنتصر فيها أيضاً القوة الروحيّة على القوة الماليّة، والقوى العقليّة على القوى الماديّة.[21] وبالتالي، يحاول الريحاني أن ينظّم مدينته كما فعل أرسطو الذي عدّ الإنسان يقصّر عن بلوغ مرتبة الكمال إلا في مجتمع سياسي منظّم. ويرى الريحاني ذلك متجسداً بديمقراطيّة اجتماعيّة إنسانيّة قبل أن تكون ديمقراطية سياسيّة، من خلال مسلك جَماعي صحّي له شروطه في شتّى حقول الحياة. هذه الديمقراطية تصحّ كلما ابتعدت عن أنواع الضغوط والعبوديّات على أنواعها[22]، مثبتاً بذلك قول أرسطو بأن الغرض الحقيقي من العلم يكمن في تطبيق القواعد النظرية لا عرضها فحسب[23].

و- السعادة والخير الأعلى: ويرى الريحاني أنّ سعادة الإنسان وكماله يكمنان في الاتّحاد بالمحجّة العليا، تماماً كما رأى سقراط من قَبله. وأنّ خير الإنسان أي سعادته تكمن في فاعلية النفس التي تسيّرها الفضيلة، ولا يمكن لأحد أن ينتزعها منه. هذه السعادة بالمعنى الحسيّ ترتبط بالغريزة أما بالمعنى السياسي فهي "ترتبط بالتشاريف التي تكون ملكًا لأولئك الذين يوزعونها". فالطبيعة خلقت الإنسان كائنا حيّاً متحرّكاً طبيعيًّا له ميوله ونزواته. ولم تخلقه كائنًا باردًا جامدًا أو عاجزًا، "فكما لكل عضو من أعضائنا وظيفة خاصة به، كذلك الإنسان الكليّ، لا بد من أن تكون له وظيفته الخاصّة، وهذا النوع من السعادة لا يمكن لأحد أن ينتزعه منه. الإنسان الفاضل هو الذي يطلب السعادة عن طريق الفضيلة ولا يمكن أن يكون بائسًا، ومهما رأى من مصائب قاسية فهو يتلقاها بنفس كريمة. فبالتالي لن يكون شقيًا لأنه لا يرتكب الأعمال الخسيسة. وهذا الإنسان يعرف دائمًا كيف ينتفع أفضل انتفاع ممكن من الظروف كافة"[24]. ويخلص أرسطو إلى أن الخير الأسمى للإنسان هو السياسة، علماً أن السعادة مسألة جماعية لا فردية[25]. "وإذا كانت السعادة ترتبط بالفضيلة بصفة عامة، فإن الاستعداد الروحي للأخلاق لا يكفي، بل يجب إضافة الاستعداد المعرفي والعقلي، ممارسة وفعلاً. هذا ولا ينفي أرسطو أن تكون السعادة مرتبطة إلى حدّ ما بأنواع الخير الخارجية وموارد السعادة المادية (الصحة، الثروة، الجمال...). فالسعادة تدخل إذاً في مجال الحقل النظري والعملي في الوقت نفسه. كما أنها ترتبط في الحقل العملي بعلم السياسة، وهي تجعل من المواطنين أفرادًا سعداء عن طريق ممارسة الصدق وحفظ الشرف. فالسعادة بهذا المعنى ميزة إنسانية تُدخل الإنسان في بُعد الألوهيّة"[26]. وهذا ما يتوافق إلى حدّ بعيد مع ما أتى به الريحاني في مسألة السعادة، إذ رآها في "إتقان الصانع صنعته وبخاصةٍ تلك التي تتطلب جهدًا في الفكر والاختراع". ومن هنا، انطلق الريحاني في الدعوة إلى التسامح وإلى محاولة تربية النفس عليه، وتجاوز التمييز بين المرأة والرجل من خلال جعل الهمّ واحدًا والأدوار متشابهة. كما يلتقي مفهوم الريحاني للسعادة مع ما ورد في مفهوم القديس بولس لهذه المسألة الفلسفية عن "الفرح" بوصف السعادة كإحدى مكوناتها إنطلاقاً من قول السيد المسيح عن الفرح: "لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ"، وعن مصدره يقول: "إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ

فِي مَحَبَّتِي، كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ" (يوحنا 10:15و11). وبذلك تكون السعادة الحقيقية، في الفرح الحقيقي الذي يتجسّد في أن نحب الله ونكون معه. وهذا ما يؤكّده الرسول بولس بشكل كامل في قوله: ''لأَنْ لَيْسَ مَلَكُوتُ اللهِ أَكْلاً وَشُرْبًا، بَلْ هُوَ بِرٌّ وَسَلاَمٌ وَفَرَحٌ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ" (روما 17:14). ومصدر الفرح يكمن أيضًا في الإيمان. ومع هذا النوع من الفهم، يسكن الفرح والنور بشكل راسخ في قلب المسيحي، ولا يبقى مكان للغمّ إذ إن هذا الكون غير المحدود هو لله إلهي"[27]. ومن هذه الخلفيّة، يطلب الريحاني من اليائس أن يبعد فكرة الانتحار عنه، وأن يفكر في الخلود ويمشي في العراء مشية المفتون بفكرة أو خيال، مجذوب إلى مهبط الوحي والكمال، مجنون بربّ الطبيعة والجمال، ما يبيّن إيمانه الصادق بالوحدانيّة بكلّ معناها ومغزاها: وحدانيّة الإله، وحدانية الطبيعة، ووحدانيّة الإنسان. ويذكر في نصّه هذا، هدايا الرسول، فيعود إذ ذاك إلى بيته، تبعاً لما نقرأه في ما يلي: "وأنت ربّ نفسك، ربان سفينتك." إذاً، يجعله يفكر في البديل الإلهي، بعطاياه، فيشعر حينذاك بالفرح والحبور. وتعود في المرء الهمّة والنشاط والمرح والحبور وقوة الفكر والإرادة، ومن الثقة بالله وحب المغامرة والمغالبة ما يكفي لينقذ نفسه وينقذ غيره من غمرات اليأس، ومن عبودية الخمول والذلّ"[28].

ولاستكمال العملية الإصلاحية، يعبّر عن سخطه على ما يجري في مناطق أخرى في العالم بخاصة في ما يتعلّق بالأحداث التعسّفية، وهذا ما حمله على التفكير في سبل الإصلاح السياسيّ وإمكانية تحقيقه، انطلاقاً من تحديد مواطن الفساد كمحاولة أخيرة قبل إعلان الثورة[29]. وبناء عليه، يولي الريحاني أهمية كبيرة للحرية، والترفع عن حب الذات بمثابة وسيلة وغاية في آن: وسيلة للمقدرة على المواجهات الاجتماعية والسياسية، وغاية تتم بها الممارسات المتعافية في السلوك الإنساني فرديًّا وجماعيًّا[30].

وانطلاقًا ممّا تقدّم، يبدو أمين الريحاني مثاليًّا في العديد من مبادئه الفلسفية لجهة تمجيد العقل والروح معاً، والتقليل من دور المادّة، والإيمان بأنّ العالم الذي نعيش فيه هو عالم ماديّ يتّصف بالتغيير وعدم الاستقرار، ويقابله عالم مثاليّ لا وجود له على الأرض توجد فيه الأفكار الحقيقية والمستقلة. كما أنه يؤمن بوجود قيم ثابتة لا تتغيّر، ولا يجوز الشك في صحتها، وهي موجودة في العالم ومستقلة عن الإنسان، ومنفصلة عن السلوك الإنساني داخل المجتمع، وثابتة لا تتغير في إطار الزمان، وهي ملائمة للأجيال القادمة بأجمعها، وقابلة للتعلّم كما هي الحال في الحقائق وذلك عن طريق الوحي والبحث والاستكشاف. كما أنّها مُهمّة للمجتمع من أجل تنظيمه بصورة تحكمُها الصفوة لتحقيق الحياة الفضلى التي تسودها قيم الحق والخير والجمال[31].

ويبدو أمين الريحاني مثاليًّا أيضًا من خلال إيمانه بأن المجد ليس على هذه الأرض وإنما في السّماء، ولا يتحقق فرديًّا عن طريق تحقيق أغراض خاصة وإنما عن طريق الترفّع عن الأنانية والتمتّع بمواهب الله للإنسان وبكلّ ما يمتلكه وما يحيط به، فيشعر بالاكتفاء والارتقاء. وبالتالي،

لا يمكن أن يكون هذا المجد في المدينة ومفاهيمها وأفكارها ونمط العيش فيها لأنها، وبخبرته، لا تمنح الإنسان ضالته المنشودة، ولا تقوده إلى السلام والسكينة ولا إلى المجد الدائم الذي يتضمّن حتماً معنى الخلود، وإنما كلّ ذلك يكون في مكان آخر أقرب إلى الطبيعة وإلى الله.

ويبدو أمين الريحاني مثاليًا أيضًا مع تشديده على بعض القيم كالصداقة والإخلاص والترفّع عن الحاجات الغريزية، وبعض الصفات السلوكيّة التي يجب على الإنسان التمسّك بها: الهمّة والنشاط والمغالبة، وتشديده على الإرادة وحرية الاختيار ليجد في النهاية الإنسان سعادته الدائمة من خلال السير باتجاه الله. وهو مثاليّ عقلاني في محاولته التغييرية للإنسان والمجتمع، كما حاول أن يفعل آنذاك في الشرق والغرب، مع الإشارة إلى البحث عن الإنسان الجيد أو الذات الجيدة كما يتصورها تمهيدًا للبحث عن المجتمع الجيد أي مجتمعه الفاضل[32].

وتلتقي دعوة الريحاني للتغيير إلى حدّ بعيد مع بعض الأفكار التي أتت بها البراغماتية بعده بسنوات عديدة. ومن أبرز نقاط الالتقاء هذه، نذكر ما يخص الجانب العملي الإصلاحي في ما يلي:

- المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة.
- العقل أداة لإنتاج العلم: وحين يتحقق كإرادة يتجه نحو الدين. وعلى هذا، فالعقل هو أداة لفهم العالم وتغييره، والنظريات الفلسفية وسائل تقود لإنجاز الأهداف المحدّدة في المستقبل.
- العالم متغيّر باستمرار، ويعدّ الوصول إلى حقيقة الكون وكيفيّة وجوده أمرًا بعيد المنال. وتنظر الأفكار البراغماتية إلى الحقيقة على أنها غير مطلقة، وتضع ثقتها في قدرة الإنسان على الإسهام الفاعل في بناء المجتمع وتطويره، وحل المشكلات التي تواجهه، أو التخفيف من حدّتها على الأقل.
- طبيعة الإنسان متكاملة؛ فعقله وجسمه ومشاعره ليست أجزاء منفصلة، بل هي خصائص لعضو متكامل، وأن كل فرد له طبيعته وشخصيته الخاصة به، ويُعد جزءاً من المجتمع، وله دور معين فيه.
- أفكار الإنسان وآراؤه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً، ثم السير نحو السّمو والكمال ثانياً، وإذا تضاربت آراء الإنسان وأفكاره وتعارضت، كان أحقّها وأصدقها أنفعها وأجداها، والنفع هو الذي تنهض التجربة العملية دليلاً على فائدته[33].
- التركيز على الخبرة والممارسة والفكر العملي في حلّ المشكلات، وخدمة المجتمع الديمقراطي، وتبنّي مبدأ المشاريع كوسيلة من وسائل التعلّم.
- تأكيد ضرورة تجاوز الماضي، وأن التعليم يحتاج إلى حدّ بعيد إلى ثقافة اليوم والغد، ويأخذ منها على قدر الحاجة للحياة الفاعلة المفعمة بالخبرات الناجحة[34].

- الإيمان بإمكانية الإصلاح التدريجي للعالم والأفراد كلّ على حدة، والنجاح في الحياة رهن بسعي الفرد وإرادته.

وخلاصة القول، أثار الريحاني بعض المسائل الفلسفية وناقشها من دون أن يتوصل إلى نتائج حاسمة، كما شكّلت تدريجياً مقترباً نقدياً لديه في البحث عن بدائل فكرية يمكن أن تشكل بدورها منطلقًا لفلسفة خاصة على مستوى عالمي. ويمكن القول إن الريحاني سبق العديد من الفلاسفة البراغماتيّين، ولا سيما برتراند راسل الذي رأى أن الغاية من التربية هي تحقيق السلم في العالم، وبخاصةٍ بين الشرق والغرب، مشددًا على بناء شخصية الإنسان كمواطن عالمي يأبى أنواع التصنيف والتفريق بين الهويات والثقافات والانتماءات[35]. وهذا ما سعى إليه الريحاني في كتاباته، منذ أكثر من مائة عام، مع الإشارة إلى بعض الاختلاف ما بين تصوّراته وتصورات راسل إزاء المتغيّرات الحاصلة على الصُعد كافّة. وجعلت السمات الآنفة الذكر أفكار الريحاني الفلسفية أفكارًا متحوّلة وقابلة للمناقشة والتعديل والتحول من عصر إلى عصر، كونها تطرح قضايا مهمة لا تزال تلقي بثقلها على المجتمعات العربية والغربية، قضايا خاصة بالمجتمع الإنساني بشكل عام من جهة، والمجتمع الشرقي، بالمقارنة مع المجتمع الغربي من جهة أخرى. ولهذا، لا تزال الخطوط العريضة في أفكار الريحاني الفلسفية تحافظ على جِدّيّتها، على الرغم من تغيّر وسائل المعرفة والنظرة إلى الوجود، وعلى الرغم من التطور العلمي المحفّز للعقل، وعلى الرغم من أن الكومبيوتر وغزو الفضاء حطّما المسافات، إلا أن المجتمعات العربية لا تزال بحاجة إلى أفكار الريحاني الفلسفية للأخذ بها، والعمل بمنهجها لتنهض من سباتها وترتقي بشعوبها.

Ameen Rihani: A Writer with Philosophical Thoughts

Maya El Hage, *Department of English and Translation, Faculty of Humanities, Notre Dame University (NDU), Louaize, Lebanon.*

Abstract

Rihani's essays in *Ar-Rayhaniyyat* include several texts that deeply highlight Ameen Rihani's thoughts and ideas on philosophy. I chose two texts "In The Spring of Despair" and "The Most Exalted Prophet", both of which clearly urge the reader to question this kind of philosophy and its incarnation in Rihani's thoughts and works. Both texts are rich enough with concrete pictures and examples that could simply enrich the analysis of this philosophy setting it properly in time and placing it in its real era. Besides, both texts draw comparison between Rihani's ideas on the philosophy of idealism, the pragmatic one and the realistic one with respect to human beings and their complexity, the world that surrounds them, the universe they belong to, the values and principles they believe in, and eventually the knowledge they aim at possessing.

This paper sheds light on Rihani as a person and a writer whose ideas are filled with philosophical thoughts. He, therefore, joins great minds such as Dante, Saint Paul, Socrates and others, who left their prints on his work and philosophy. Rihani's philosophical thoughts make us wonder whether such ideas are pure idealistic ones directly linked to Plato and Descartes or his own variation with added ingredients of his own.

الهوامش:

1- الريحانيات: الأعمال العربية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 613-617؛731-736 هذا بالإضافة إلى المقالات الأخرى التالية: "من أنا؟"، "التساهل الديني"، "من على جسر بروكلين"، "المدينة العظمى"، "روح هذا الزمان"، "روح اللغة"، "دولة المستقبل"، "وادي الفريكة"، "في العزلة"، "الأخلاق"، "قيمة الحياة"، "مناهج الحياة"، "حبل التفاؤل"، "الحقيقة المبعثرة"، "الحكمة المثلثة.

2- عبد الحسين شعبان الحوار المتمدّن - العدد: 3905 - 2012 / 11 / 8 - 17:27 المحور: الأدب والفن. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=331558 ، تمت الزيارة في 25 تشرين الأول 2016.

3- أمين ألبرت الريحاني، أمين الريحاني فيلسوف الفريكة، دار الجيل، 1987، ص 185-187.

4- نقلاً عن الكافي في الفلسفة العربية، دار الفكر اللبنانيّ، منشور على الموقع الإلكتروني التالي - http://www.philomalek.yolasite.com/7orriya wa-takadom.php؛ تمت الزيارة في 25 تشرين الأول، 2016.

5- نقلاً عن الكافي في الفلسفة العربية، دار الفكر اللبنانيّ، منشور على الموقع الإلكتروني التالي: - http://www.philomalek.yolasite.com/7orriya wa-takadom.php؛ تمت الزيارة في 25 تشرين الأول، 2016.

6- الريحانيات: الأعمال العربية الكاملة، ص 613.

7- أسعد سليم البتديني، الفلسفة الأخلاقية الأرسطية، دار العلوم العربية، بيروت، ط1، 2016، ص 21

8-https://w2.vatican.va/content/john-paul-ii/ar/encyclicals/documents/hf_jp-ii_enc_14091998_fides-et-ratio.html.

9- مفهوم الحب بين العلم والفلسفة والدين.. بقلم صبري محمد خليل http://www.sudaress.com/sudanile/66968 تمت الزيارة في 19 ت1، 2016.

10- الريحانيات: الأعمال العربية الكاملة، ص 615.

11- المصدر نفسه، ص. 616.

12- أمين ألبرت الريحاني، أمين الريحاني فيلسوف الفريكة، ص 156-158.

13- ياسين كريكر، علم النفس والفلسفة - تمت الزيارة 25 تشرين الأول، 2016، http://thevoiceofreason.de/article/11416.

14- الريحانيات: الأعمال العربية الكاملة، ص 618.

15- المرجع نفسه، ص 618 .

16- أمين ألبرت الريحاني، أمين الريحاني فيلسوف الفريكة، ص 176.

17- المرجع نفسه، 184.

18- الريحانيات: الأعمال العربية الكاملة، المرجع السابق ص 616.

19- الموسوعة العربية، http://www.arab-ency.com/ar، تمت الزيارة في 24 تشرين الأول 2016.

20- أمين ألبرت الريحاني، أمين الريحاني فيلسوف الفريكة، ص 235- 216.

21- المرجع نفسه، ص 274.

22- أمين ألبرت الريحاني، أمين الريحاني فيلسوف الفريكة، ص 312 -318.

23- أسعد سليم البتديني، الفلسفة الاخلاقية الأرسطية، ص13-15.

24- المرجع نفسه، ص 27-32 .

25- أمين ألبرت الريحاني، المرجع السابق، ص 236.

26- http://www.anfasse.org/2010-12-30-16-04-13/2010-12-05-17-29-12/5082-2013-10-10 الخميس، 10 أكتوبر 2013 11:46 58-46- . عبد الحليم مستور

27- الأب أنطوان ملكي/ http://www.churchvoice.net.

28- الريحانيات: الأعمال العربية الكاملة، ص 733-735.

29- أمين ألبرت الريحاني، أمين الريحاني فيلسوف الفريكة، ص175

30- المرجع نفسه، ص 179.

31- حسيب شحادة، تاريخ النشر: الإثنين، 18 نيسان، 2011 http://www.globalarabnetwork.com/studies/3288-2011-04-18-18-20-52، تاريخ الزيارة: 25، تشرين الأول، 2016.

32- أمين ألبرت الريحاني، أمين الريحاني فيلسوف الفريكة، ص 201.

33- الفلسفات الأنجلو – أمريكية من تفكيك الواقع إلى إعادة بنائه، إشراف وتحرير سمير بلكفيف، تأليف مجموعة من الباحثين والأكاديمين العرب، منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف، 2016، ص 113؛غادة الشامي: البراغماتية: عرض المنهج ونقد الواقع، تاريخ النشر: 24/10/2014، http://www.alukah.net/culture/0/77581/ تاريخ الزيارة: 2016/10/25.

34- عدنان عويد، الفلسفة البراغماتية، تاريخ النشر: 25، تشرين الاوّل، 2016، تمت الزيارة: 2016/10/25.

35- وكان قد حدد راسال "أربعة شروط تتمثل في حكومة واحدة، انتشار الرخاء بين أجزاء العالم، وفسح الطريق أمام الابتكار الفردي، مع توزيع قدرة من القوة بما يحافظ على الإطار السياسي والاقتصادي الضروري مع تخفيف عدد الولادات". الفلسفات الأنجلو – أمريكية من تفكيك الواقع إلى إعادة بنائه، إشراف وتحرير سمير بلكفيف، تأليف مجموعة من الباحثين والأكاديميين العرب، ص 323.

قائمة المصادر والمراجع

أسعد سليم البتديني، **الفلسفة الاخلاقية الأرسطية**، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2016.

أمين ألبرت الريحاني، **أمين الريحاني فيلسوف الفريكة**، دار الجيل، 1987.

الريحانيات: **الأعمال العربية الكاملة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

قائمة المراجع الإلكترونية

عبد الحسين شعبان، **الحوار المتمدن** - العدد: 3905 - 2012 / 11 / 8 - 17:27 المحور: الأدب والفن، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=331558 تمت الزيارة في 19 ت1، 2016.

عبد الحسين شعبان، **الكافي في الفلسفة العربية**، دار الفكر اللبنانيّ، منشور على الموقع الإلكتروني التالي http://www.philomalek.yolasite.com/7orriya wa-takadom.php

https://w2.vatican.va/content/john-paul-ii/ar/encyclicals/documents/hf_jp-ii_enc_14091998_fides-et-ratio.html.

مفهوم الحب بين العلم والفلسفة والدين، بقلم د.صبري محمد خليل.

http://www.sudaress.com/sudanile/66968 تمت الزيارة في 19 ت1، 2016.

محمود شاهين، **دانتي و«رسالة الغفران» وحدة فكرية وطرقات متباينة** http://thaqafat.com/2015/01/24941/، تاريخ الزيارة 25، تشرين الأول 2016.

ياسين كريكر، **علم النفس والفلسفة**- تاريخ المقال: 2014/02/06، تمت الزيارة 25 تشرين الأول، 2016 http://thevoiceofreason.de/article/11416

الموسوعة العربية، http://www.arab-ency.com/ar، تمت الزيارة في 24 تشرين الأول 2016

http://www.anfasse.org/2010-12-30-16-04-13/2010-12-05-17-29-12/5082-2013-10-10 46-5811:46 2013 أكتوبر 10 الخميس، عبد الحليم مستور .

الأب أنطوان ملكي/ http://www.churchvoice.net

حسيب شحادة، تاريخ النشر: الإثنين، 18 نيسان، 2011 http://www.globalarabnetwork.com/studies/3288-2011-04-18-18-20-52، تاريخ الزيارة: 25، تشرين الأول، 2016.

الفلسفات الأنجلو – أمريكية من تفكيك الواقع إلى إعادة بنائه، إشراف وتحرير سمير بلكفيف، تأليف مجموعة من الباحثين والأكاديميين العرب، منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف، ط1، 2016؛ غادة الشامي: البراجماتية: عرض المنهج ونقد الواقع، تاريخ النشر: 24/10/2014، http://www.alukah.net/culture/0/77581/ تاريخ الزيارة: 2016/10/25.

عدنان عويد، **الفلسفة البراغماتية**، تاريخ النشر: 25، تشرين الاوّل، 2016، تمت الزيارة: 2016/10/25

الملاحق

في ربيع اليأس (أمين الريحاني)

اليأس، مثل كلّ حسّ بشريّ، يتنوّع في الناس ويتفاوت. فقد ييأس الفلّاح مثلاً من جفاف زرعه، أو من وباءٍ يذهب بمواشيه. وقد ييأس العالِم من نظرية يعالجها لاستئصال ذلك الوباء، أو آلةٍ يخترعها للسيطرة على الجوّ والمطر. وكذلك يختلف يأس الشاعر عن يأس البقّال، ويأس الأنبياء عن يأس المجرمين.

أعود بك إلى أمثلةٍ من اليأس الأعلى الذي لا يزال نوره يشعّ في العالم. إلى المسيح في "الجثمانية"، إلى النبي في الكهف، إلى الرسول بولس في مركب تتقاذفه الأمواج، إلى سقراط في السجن، إلى أبي العلاء في محبسَيه، إلى دانته في منفاه، فهل كان يأس هؤلاء مثل يأس جيرانهم الفلاحين والنوتيّين والعشارين، أو مثل يأس زملائهم الأدباء والشعراء؟

وهل الإنسان الذي ينتهي يأسه بقصيدة ينظُمها، أو تتقيّد أشواقه بتقريظ في جريدة، أو بعشاءٍ على مائدة أمير، أو بظفَرٍ غراميّ في حفلة راقصة، هل هذا الإنسان في يأسه مثل من له سلّمٌ لولبيّ من الأشواق والآمال؟

قد يكون الجوهر واحداً. ولكنّ الشكل واللون والبيئة، وما يتّصل بالبيئة من سابقٍ ولاحقٍ في الحياة، تختلف كلّها اختلاف الأشواق والآمال في الناس، واختلاف الثروة الروحية في الأفذاذ من الناس.

كان ليأسي شتاءً، وكنتُ فيه الأديب المجاهد في سبيل – المجد! وكنت بين كُتُبي وأوراقي وصوَري وتُحَفي الفنّية، كالقائد لجيشٍ عاصٍ، متمرّد. وما الفائدة من السلاح والذخيرة، من القلم والأفكار والعلوم كلّها؟

ماذا يفيدك الفلك وأنت لا تدري إلى أي برج من أبراجه تصل النجدة؟ أو ماذا يفيدك معرفة البلدان وأنت عاجز عن السفر إلى حيث تخفّ تكاليف الحياة وتنعم جنَباتها؟ أو الفلسفة وأنت في لُجَج الأحزان من أضعف الناس؟ أو الطبُّ وشراييُنك تزداد تصلّباً يوماً فيوماً والمكروب يفتك برئتيك أو الفزيولوجيا وأنت لا تستطيع أن تصلح قلبك المكسور أو قلب المحبوب القاسي؟ أو الفنون الجميلة والعالم كلّه في نظرك كَلوحة مبتدئٍ في الفنّ؟

كان ليأسي شتاءً، وكنت فيه الأديب العالم المجاهد في سبيل – المجد! ولكنّ ذلك اليأس فتح أمامي باباً من أبواب الحياة.

خرجت ذات يوم من بيتي، من غرفتي التي كفّنت فيها أعزّ ما لديّ. خرجت من الغرفة ليلاً لأنيّ لم أُطق أن أرى ما كنت أتخيّله أمامي: تابوت أحلامي! فررت منه في ليلة عاصفة. وكان الثلج يتساقط عليّ، ويتراكم تحت قدمّي، ويتجمّد ألماً بين جنبيّ. وكنت، لستاره الكثيف وللرياح التي أحنت رقبتي، لا أرى غير موطئ قدمي. فاصطدمت في تلك الساعة وشخصاً آخر حالُه في العاصفة مثلُ حالي، فاعتذرت. واعتذر الآخر وكان صوتاً ناعماً رقيقاً: "لا تؤاخذني". صوت فتاة، بائسة، شريدة... جمعَ الثلجُ والليل بيننا، وربطتِ العاصفةُ قلبينا...

سرتُ بها إلى بيتي، إلى غرفتي التي تركت فيها تابوت أحلامي. وأجلستها بين كتبي وأدواتي، وصوري الفنية والتذكارية. فقالت: ليتها تؤكل! أخرجت كلّ ما في الخزانة الصغيرة، فأكلَت وهي لا تزال ترتعد من البرد. شببتُ النار، ولم يكُن عندي ما يكفي من الفحم، فأشعلتُ سفراً من الأسفار.

لقد أنساني لهيب تلك الصفحات أحلامي. وأنستني البائسة الشريدة، الضالّة المنشودة. لله من الحياة! أبمثل هذا البؤس وهذه الأحلام ننشد الشهرة والمجد، ونودّ أن نحرق المدينة، ونعزف بالناي مثل نيرون فوق طلولها، لأنها لا توالينا ولا تفتح لنا أبواب قصورها؟

كنت والبائسة تلك الليلة كآدم وحوّاء، آدم وحوّاء لا في الفردوس، بل في الجحيم. وفي تلك الليلة تحوّل يأسي، وتضاعفت أحزاني. لم أفكّر بعد ذلك بضالّتي المنشودة، وامّحى من مخيّلتي رسم تابوتها. بيد أنّي انتقلت إلى الحياة الكبرى التي تتبارى فيها المحاسن والمآثم، واللّذات والآلام. لله من نير الحياة الذي يقرن العقم بالفضيلة والبؤس بالجمال.

تحوّل يأسي كما تتحوّل الدودة فتصير فراشة. فوددت لو كان في إمكاني أن أخرجَ حواء وآدمها – كلّ امرأة وكلّ رجل – من جحيم هذا الزمان، وأعود بهما إلى الفردوس الأول. هيهات! هيهات! وكان هذا اليأس في قلبي أحرّ من نار الجحيم، وآلمَ من كلّ ما قاسيته من الآلام. فلا عجب إذا فررت منه. فررت من آدم وحوّاء في الجحيم. هربت من المدينة، ومن جحيمها.

هربْتُ إلى البادية، فنسيت آدم، ونسيت حواء، ونسيت الجحيم. وكانت سنة من السياحة فيها البهجة والحبور قدْرَ ما فيها من الحرمان والمشقّات!

ليس من شأني التلاعب بالأفكار والألفاظ. وإنه ليؤلمني أن أترك القارئ مخدوعاً بكلمة من كلماتي، أو أن أحملهُ على التأويل، كما يؤلمني أن أخادع النفس ولا أطيق ذلك.

كنت قبل الفرار إلى البادية في شتاء اليأس، بل في باب الربيع منه. ولكنّي لضعفٍ روحيّ أو نفسيّ أو جسمانيّ – وقد يكون الضعف في الثلاثة – لم أَثبتْ في الجهاد. فتقهقرْتُ، ثمّ عدتُ أدراجي إلى الشرق، إلى البادية العربية، فكنت فيها مغتبطاً على ما قاسيت، محبوراً على ما حُرِمْت.

وكيف ذلك؟ رأيتُني في البادية أمشي في ظلّ الشهرة التي طاردتها في المدينة، ورأيتني محفوفاً بالتجلّة والإكرام، ورأيتني مستمتعاً بما كنتُ أتوق إليه، بالمجد قبل أن أستقرّ في تابوته، وقبل اجتماعي بحوّاء في الجحيم.

هل عدت بفراري إلى البادية، إلى الوراء؟! إذا ما نظرنا في الأمر نظرة سطحية أُجيب: نعم. قد عدتُ إلى الوراء سنة واحدة. إنّما كان من العِلم ومن الخدمة لقومي، ومن معرفة الله في تلكم الدهناء وتلكم النفود، ما يبرّر سنةً بل سنوات تتخلّل اليأسين: يأس الشتاء، ويأس الربيع.

أيها القارئ العزيز، ما أنا برسول الحقيقة والخير إليك، إذا كنتُ لا أتحرّى الصراحة والصدق في ما أقول. لذلك تُراني أفتح كتاب النفس، لأطلعك على صفحة من صفحاته الشخصية الخصوصية.

سنة في البادية انتهت بعزلة في الجبل؛ ولكنّها عزلة جسمانية فقط. فهاك الكتب والأوراق والألوان الفنية تشاركني هذه العزلة. وهاك الجرائد والمجلات تحمل إليّ أخبار العالم والحياة.

العالم الذي فررتُ منهُ والحياة التي نبذتها! ترى الأول يجالسني كلّما جلستُ أستريحُ، فيُحدّثني وهو يبتسم بسمة إبليس. والثانية تجيبني سامرةً، فتثرثر وتقهقه.

العالم يقطع عليّ العزلة ليقول: وما الحقّ بغير القوّة! وما الرجال بغير المال! وما الانتداب غير نوع جديد من الاستعمار. خُلق الضعيف لخدمة القوي. والضعيف من الشعوب والأمم، كالضعيف في الناس، قسطه النيّر...

وهاكم قوياً في العالم الجديد يسيطر على أقوياء العالم القديم. يسيطر بالمال، بالذهب. وهاكم في الشرق الأوسط دولة تقلّد دول الغرب بما يودّ المصلحون تطهير الغرب منه، بالقوّة الماديّة والشره الاستعماري. وهاكم الصّين تئنّ بين براثن الحرب الأهلية التي تغذّيها سراً دول الغرب. وهاكم الهند وفيها الأسد والفيل يتنازعان المُلك ويتصارعان. وإلى الشمال دولة تشرئبّ بعنقها إلى الغرب وتودّ أن يكون لها في الهند ما لليابان في الصين.

وهاكم في الشرق الأدنى طرفي الحقيقة: إنّ "الحقّ للقوّة". ففي أنقره نخطّ الحقيقة بأحرفها الكاملة ونلفظها: جمهورية كماليّة. وفي طهران نخطّها بماء الذهب بالحرف الفارسيّ ونلفظها: مملكة رضوية. وفي نجد والحجاز نخطّها على الرمال بأحدب البتّار، فتسفيها الرياح وهي تردّد اسم ابن سعود. وفي الشرق العربي لا نكاد نخطّها حتى يمحوها ببنصره الخنوعُ، ويكتبَ مكانها: عاشت بريطانيا العظمى! وهذه بريطانيا العظمى بعد أن استعادت شيئاً من الصولة التي فقدتها في الحرب الكونيّة، تُقلّد الطائع في الشرق العربي وساماً، وتهدّد بالمدرّعات والطائرات، السيادة الوطنية والحرّية القومية في فلسطين.

وفي هذه البلاد السورية كُتبت الحقيقة بعشر لغات – لغات الطوائف – فكان للدولة المنتدبة فيها عشرُ قراءات مختلفات، وكلّها تعود إلى مصدر واحد: الحقّ للقوّة.

بِذا يُحدّثني العالم وهو يبسم بسمته الخبيثة المؤلمة، وقد يُحدّث في كلّ زمان بمثله أو بغيره.

والحياة تقطع عليّ غزلتي فتجيء سامرة وتقول: إنّما الحقُّ لمنْ يُحسن الرياء، والقوّة لِمن يبرع في المداجاة. الحق والقوّة والوجاهة والثروة كلّها للّامعين، لأولئك الذين يقفون مطأطئي الرؤوس أمام كل كبير من السادة العظماء، وأمام كل من وقف حولهم في ظلال السلطات الثلاث: المدنية والدينية والمالية.

الحق والقوة والوجاهة والثروة لمن يقول: نعم، نعم، على الدوام. ذلك أن القوة الإيجابية في الحياة هي القوة الغالبة. ولا يقول: لا، لا، غير المصابين بعُسر الهضم، والمجانين، والأنبياء. أتبغي المال والرفاهية والجاه؟ نعم، نعم. أتبغي السيادة والقوة والمجد؟ نعم، نعم. سيارة تتصدّر فيها؟ نعم، نعم. عصا من الذهب وثوباً من الأرجوان؟ نعم، نعم. عضويّة في المجمع العلميّ، أو رئاسة في البلدية، أو في الرابطة الأدبية؟ نعم، سيدي، نعم... وفساتين يا سيدتي من باريس؟

نعم، نعم. وأميراً صاحب كيس؟ كيف لا! والحبّ لإبليس. نعم، لإبليس... هي ذي الحياة، حياة كل يوم، تجيئني في الجرائد مثرثرة، مقهقهة ثمّ تتوارى وهي ترقص الرقصة الجديدة.

فأخرج أنا من المنزل لأستنشق الهواء النقي ولأحدّث النجوم، وكأني بها، وهي تدور في أفلاكها، تذكّر بمن وقف تحتها في غابر الزمان من الأنبياء والعلماء، وتقول: نعم، نعم، لكل ما قالوه.

وهل من حاجة إلى أن أردد على مسمع القارئ ما قاله الأنبياء؟ فقد بدأ أحدهم وصاياه بـ"لا، لا". ووقف أحدهم أمام عروش الظلم وقال: لأربابها "لا"! ومشى آخر مع الفقراء وذوي القلب الوديع فقال لهم مراراً:"أنا هو خبز الحياة. ومن أضاع حياته من أجلي يجدها!" وأوصى رابع بالأمر بالمعروف بالنهي عن المُنكَر. وقالوا كلّهم بالحبّ والسلام والإخاء الإنساني. وكلّهم يئسوا من الإنسان.

ووقف الأنبياء في ربيع اليأس، فصرخوا من أعماق قلوبهم قائلين: سمع الإنسان كلمة الله وظلّ عتياً. وآمن الإنسان وظلّ ضالاً. ومشى الإنسان على الاثنين وهو لا يزال في كثير من صفاته مثل ذوي الأربع. علّمناه التوحيد وهو لا يزال يقول: عيسى ومحمد وبوذا وزرادشت. علّمناه المحبّة وهو لا يزال يصنع المدافع والقنابل والبارود. علّمناه الرحمة والعدل وهو لا يزال، في سبيل شهواته، يطأ بقدميه القلوب الدامية.

نفض الأنبياء أيديَهم من الإنسان. ولكنّ صرخات يأسهم سمعتها القرون، ورددتها الأجيال. ردها في كل جيل أفراد من أولئك الذين يهبون حياتهم ليظفروا بها، وأدى ترادهم إلى تجديد الصلاح في الناس وزيادة عدد من يقولون "لا"! ومن هم في قلوبهم، وفي أعمالهم مؤمنون إيماناً صادقاً. لذلك ترى الواحة في بيداء الحياة تتّسع وتزداد اخضراراً كلّ مئة من السنين.

كذلك يُزهر يأس الأنبياء ويُثمر.

وأنا المقيم في هذا الوادي، في هذا الزمان، زهرةٌ من يأس الأنبياء. زهرة نوّرت، فذوت، فتناثرت أوراقها، ثمّ انتثرت من قلبها بذور الحياة، فحملتها الرياح في النواحي الأربع من الأرض.

زهرة من يأس الأنبياء تغدو بستاناً، ويضحي البستان ربيعاً، ويكون للربيع صوت، هو الذي تسمع الآن! هو صوت صاعد من ربيع اليأس!

لله من ظلم يُبعَث في حكومات العالم الحرّة! لله من تعصّب يتجدد في أديان الأمم المتمدّنة! لله من شعوب تنفر إلى الماضي لتمتصّ من عظام الأموات شيئاً من الحياة! لله من حياةٍ تزداد

أعباءً كلما ازداد الإنسان عِلماً ونوراً! لله من شعوبٍ في هذا الشرق تُردّد كلمات التوحيد وهي عامهة في الشرك.

في السماء ربٌّ واحد وإن تعددت أسماؤه. وعلى الأرض ناموسُه، مظاهر تتجسّم كل جيل في أفراد من الناس، فينيرون جادّات الروح، ويفتحون للشعوب باباً من أبواب الخلاص (الرّقي).

هم أزهار ذاك الربيع، ربيع يأس الأنبياء. لهم يومهم، ولهم عملهم، ولهم يأسهم المزهر المنير. ولولا ذلك ليئسوا حتى من الله.

إنّ يأسي لَفي ربيعه وفي هذا الربيع لكلّ أمّة من الأمم، ولكلّ شعب من الشعوب زهرة طيّبة الأريج.

ولكنّي وإن قالت أمي: العذراء، أقول: الله.

وإن قال إخواني المسيحيون: المسيح، أقول: الله.

وإن قال إخواني في الشرق: بوذا، أقول: الله.

وإن قال إخواني العرب: محمّد، أقول: الله.

وإن قال أخي الفارسي: آهورا، أقول: الله.

وإن قال أخي الصيني: كنفوشيوس، أقول: الله.

ولإنّ صوتي، وإن كان من أصوات اليأس، لَمِن أصوات الله.

ولولا هذه الأصوات المرسِلة من اليأس أشعة وحياة لتجديد الأمل والجهاد، لما مَشَت الأجيال إلى المحجّة العليا.

الرسول الأسمى

رأيته في ساحة المدينة، وسمعته يخطب في الناس، فذكّر وقال: أنا المشيّد، أنا المؤيّد، أنا أخو الخادم والسيد.

ورأيته يمشي في الحقول، وسمعته يقول: أنا الحارث، أنا الزارع، أنا الجاني والشارع.

وها هو يصعد الجبال، ويُنشد نشيد الأبطال: أنا الفاتح، أنا المعبّد، أنا الحافظ والحامي. الصخور والوعور تُذَلّل أمامي، والقُنَن والسُحب مطايا أحلامي.

وها هو يسير على موج البحار ويُرسل صوتَه ترتيلاً: والمعجزات وربِّ الكائنات، إنّ الأرض لِمَن يسعى، ولِمَن يسعى السموات.

وها هو يطير في الفضاء المغيّم، ويهتف هتافَ مَن ظفر بالنعيم: تحت ناظري يَذوب الضباب، وأمامي تتبدّد السحب، وحول جناحي تنبثق الأنوار.

إنّه الفكر العامل الغلاّب، الروح الشامل الوهّاب، الباذر، الناشر، الثائر على الدوام، يشعل النار ويشحذ السهام.

هو عدوّ اليأس والجمود، ومفكّك السلاسل والقيود.

يجدّد أيامه كالربيع ويدأب ويُبدِع ويُذيع.

يوقظ في اليائسين روح اليقين، وهو المعزّي والمُعين.

يحمل المعِول والمشعل، ينير سبل الحق، ويهدم صروحَ الضلال.

هو الرائد والمرشد والدليل،

هو الجبلُ المشرقِ، والروضُ العاطر، الظليل.

هو مندوب الحياة من لَدُن تعالى، تباركت آياتُه ومعجزاته.

هو الرسول الأسمى إليّ وإليك، فلنستمع إليه:

إنْ كنتَ مكتئباً، فلا تكن يائساً.

وإنْ كنتَ يائساً، فلا تكن جامداً.

وإن كنتَ جامداً، فاذكر أنّك خُلقت للخلود.

إنّ المذلة لفي الحياة الجامدة لا في الموت.

وإنّ الموتَ على رأس الجبل لَنورٌ يُضيء.

فإن متَّ في الغور ذليلاً، عشت خالداً في المذلّة.

وإن عشتَ حراً كريماً، ومتَّ حرّاً كريماً، كانت الحرّيّة والكرامة نوراً لخلودك السعيد.

إنه الرسول الأسمى إلينا جميعاً، فلنستمع إليه:

كنْ مغامراً، جَسوراً، أبيّاً،

فإنّ الله يُحبّ المغامرين، الجسورين، الأُباة.

وكُنْ مُجاهداً، مثابراً، وفي الحقّ عتيّاً.

لأنّ الله يحبّ المجاهدين، المثابرين، العُتاة.

لقد جئتك من العالم الأعلى، من الجبل المقدّس، وممّا وراء الأفق الأنور،

وهذه حقائبي وقد كُسيتْ بالغبار الذهبيّ والفضّي، غبار السماء، وغبار الجبل والبيداء، وهي ملأى بالكنوز الخالدة.

إنّي أحمل إليك هديّة من الشمس، وأخرى من القمر.

ولأحمل إليك سلامَ الجوزاء والمجرّة،

وذكرى الفيض الشامل العجيب، المُثبت الأزلَ والخلودَ في سلسلة الحياة.

وأحمل إليك رسالةً من ربّ الكائنات، كلمتُها الأولى وكلمتُها الأخيرة: إلى الأمام على الدوام.

وقد جئتك بغيرها من الهدايا الغالية الخالدة.

إنّ في هذه الحقيبة بحراً من شذى الورد والياسمين،

ومنْ طيب الرياحين،

ومن عبير الصنوبر، وبخور البطم، ونفخ الغار،

ومن عنبر العصفر والوزّال، وسحيق المسك والجلنار.

ومن بهجة المروج والبساتين.

وفي هذه الحقيبة فيض من سكينة الغابات،

ومن طُمأنينة الرُبى،

ومن شمم الرواسي، وكرَم الأودية.

هل أنت يائس مكروب؟

هي ذي هديّة الفجر إليك، وهي ذي هديّة المغيب،

بحراً منَ النور الهادئ فوق بحرٍ من الألوان الفاتنة، فوق بحرٍ من ذَوب اللُجَين، فوق كنوزٍ من اللؤلؤ والمرجان، والزَمرّد والياقوت، وقد صُهرت كلّها في بوتقة الشمس.

وهذه الموسيقى، موسيقى الحياة،

ألحاناً مطربة شجيّة، وألحاناً تُضرِم في الدم ناراً قدسيّة، وألحاناً تُهدّئ العصب والبال وألحاناً هي السحر الحلال.

جئتك بها من فم البلبل والهزار،

ومن قلب السواقي والأمطار،

ومن الجنادب في الأدغال، والأجراس في الجبال،

ومن صفير الرياح في الأودية النديّة،

ومن هدير الأمواج على الشواطئ الذهبية.

إنّي عدوّ اليأس، ومُعين اليائسين.

جئتُ أبعثُ فيك المرح والحبور، والهمّةَ والنشاط، والإيمانَ والأمل، وحبّ المغامرة والمغالبة.

جئتُ أقول إن الصّحة والمال والبنين لأشياء جميلة،

ولكنّ أجمل منها الشجاعة وعزّة النفس،

وأجمل منها الحرّية، والمثل الأعلى في الحياة.

أجل، إن الورد في وجنتيك لخيرٌ من الذهب بين يديك.

ولكنّ الكرامة والإباء والجسارة هي خير من الصحة والمال.

بل أقول، إن غضبةً لكرامةٍ لَخيرٌ من اليُسر والسلامة.

وإنّ جنوناً في سبيل الحقّ والحرّيّة لَخيرٌ من حياة شاكية باكية، تتوسّد اليأس وتلتحف الخنوع.

فهل أنت مِمّن يتوسّدون اليأس ويلتحفون الخنوع؟

إن كنت كذلك، وكان ما جئتك به باطلاً في نظرك،

فهاك المسدّس وفيه كلُّ ما تستحقّ، رصاصةٌ واحدةٌ لا غير.

إنما أقول، أنا الرسول الأسمى إليك، أنا الرّسول الأقدس، أقول لك الكلمة الأخيرة.

فَكّر قبل أن تدفن الرصاصة في صدرك،

فَكّر في خلودك بالمذلّة.

ثمّ اشرب من الماء كأساً أو كأسين.

واخرج إلى العراء وامشِ ساعة أو ساعتين،

امشِ مِشية مَن يفرّ هارباً من نارٍ سارية، أو ذئابٍ كاسرة.

بل مِشية مفتونٍ بفكرةٍ أو خيال، مجذوبٍ إلى مهبطِ الوحي والكمال، مجنونٍ بربّ الطبيعة والجمال.

ولذكر هداياي

أنشدْها تجدْها حولك وفيك.

فتعود إذ ذاك إلى بيتك وأنت ربّ نفسك، رُبّان سفينتك.

تعود وفيك من الهمّة والنشاط، والمرح والحبور وقوّة الفكر والإرادة، ومن الثقة بالله وحبّ المغامرة والمغالبة ما يكفيك لتنقذَ نفسك، وتنقذ غيرَك من غمرات اليأس، ومن عبوديّة الخمول والذلّ.